بين القصرين

د. طه حسين

قد أتيح لنجيب محفوظ فى هذه القصة الرائعة البارعة نجاح ما أرى أنه أتيح له مثله منذ أخذ المصريون ينشئون القصص فى أول هذا القرن.

ولكن الأدب المعاصر كغيره من الآداب على اختلاف عصورها وكغيره من الإنتاج العقلى. شىء نفهمه نحن ولا يفهمنا، ونقدره نحن ولا يقدرنا ونشعر نحن بما يتاح له من نجاح وما يفرض عليه من إخفاق ولا يشعر هو برضانا عنه أو سخطنا عليه. فلأقدم تهنئتى إذن كأصدق وأعمق ما تكون التهنئة إلى كاتبنا الأديب البارع نجيب محفوظ ولأقدمها إليه بلا تحفظ ولا تحرج فهو جدير بها حقا لأنه أتاح للقصة أن تبلغ من الإتقان والروعة ومن العمق والدقة ومن التأثير الذى يشبه السحر ما لم يتحه لها كاتب مصرى قبله.

وما أشك فى أن قصته هذه «بين القصرين» تثبت للموازنة مع ما شئت من كتاب القصص العالميين فى أى لغة من اللغات التى يقرأها الناس.

وما رأيك فى قصة تتجاوز صفحاتها المئات الأربع وتقرأها منذ تبدأ إلى أن تنتهى فلا تحس بها ضعفا ولا تشعر فيها بفتور فى أى موقف من مواقفها ولا تثير فيك إحساسا بأن الكاتب على إطالته قد أدركه شىء من الإعياء أو أصابه شىء من التراخى أو ناله ما ينال الكتاب المطولين من هذا الجهد الذى يدعو إلى شىء من الراحة والتنفس فى ذلك.

بل ما رأيك فى قصة تتجاوز صفحاتها المئات الأربع وتقرأها أنت فلا تشعر فى

أى وقت من أوقات القراءة بالحاجة إلى أن تستريح منها إلى غيرها من الكتب أو تستريح من القراءة إلى غيرها من ألوان العمل وإنما يتجدد نشاطك إلى المضى فى قراءتها دون أن يجد الملل أو السأم أو الضعف أو الفتور إلى نفسك سبيلا، وأنت جدير أن تأخذ فى قراءتها فلا تدعها حتى تتمها لولا أن ظروف الحياة تحول بينك وبين ما يجب من ذلك وتضطرك إلى الوقوف لتأتى عملا لا تستطيع تأجيله أو تقرأ شيئا لا سبيل إلى إرجاء قراءته. ثم أنت لا تكاد تفرغ من هذا العمل الذى صرفك عنها حتى تعود إليها مدفوعا إلى هذه العودة دفعا لا تستطيع مقاومته ولا الامتناع عليه.

بل أنت لا تفرغ من هذه القصة لتنصرف عنها إلى غيرها من فنون القراءة وألوان العمل وإنما أنت مضطر إلى أن تفكر فيها تفكيرا طويلا متصلا وربما أخذت فيما يجب أن تأخذ فيه من أعمالك وقراءاتك واضطربت فيما يجب أن تضطرب فيه من شئون الحياة ولكنك ترى نفسك بين حين وحين مضطرا إلى أن تعود إلى التفكير فيها والإعجاب بها والثناء عليها بينك وبين نفسك والتحدث عنها إلى الناس حين تلقى الناس.

تقف بعقلك وقلبك عند هذا الموطن من مواطنها أو هذه الصورة من صورها فلا تكاد تتحول عنه إلا لتقف عند موطن آخر أو صورة أخرى.

وقد يمضى الوقت الطويل بعد فراغك من قراءتها وإذا أنت على ذلك تعود إليها فترى أنك لم تنس منها شيئا لأن قراءتك الأولى لها قد ثبتت أحداثها وصورها وأحاديثها فى نفسك تثبيتا.

بهذا كله شعرت أنا وبهذا كله شعر غيرى من القلة الذين لقيتهم وتحدثت إليهم عنها فإذا هم قد قرأوها وتأثروا بها كما تأثرت وقدروها كما قدرتها وأحسوا من روعتها مثل ما أحسست وألحت على عقولهم وقلوبهم كما ألحت على عقلى وقلبى.

ومصدر هذا كله فيما أرى أن الكاتب يحقق فى هذه القصة تحقيقا رائعا خصلتين يبلغ بهما الأثر الأدبى أقصى ما يقدر له من النجاح وهما الوحدة التى لا تغيب عنك لحظة والتنوع الذى يذود عنك السأم ويخيل إليك أنك تحيا حياة خصبة حافلة مختلفة المظاهر والمناظر والأحداث.

فأنت تنتقل فى كل هذه المظاهر والمناظر والأحداث لا كما يتنقل المتنزه فى

بستان يختلف فيه الزهر والثمر والشجر بل كما يتنقل الإنسان فى حياة مضطربة لا يمر يوم من أيامها أو ساعة من ساعاتها إلا لقيه فيها حدث من الأحداث يرضيه أحيانا ويسخطه أحيانا، يثيره مرة ويرده إلى الهدوء مرة أخرى.

والقصة اجتماعية بأدق معانى هذه الكلمة لأنها تصور بيئة مصرية معينة فى عصر بعينه من عصور هذا القرن تصور بيئة رجالها من التجار المترفين فى الأحياء القديمة من القاهرة وفى أثناء الحرب العالمية الأولى وأعقابها ونساؤها من المحصنات الغافلات المحجبات اللاتى لم يبلغن التطور الحديث بعد، فلبثن محتفظات بعادات القرن الماضى فى البيئات المصرية الخالصة وشبابها مختلفون يمتازون بما يمتاز به الشباب فى عصر من عصور الانتقال، منهم الجاد الذى لم يدركه خمود ولا خمول فهو طامع إلى أن يتعلم ويبلغ من التعليم أرقاما كانت تتاح للشباب فى ذلك العصر. ومنهم الكسل الذى لا يتجاوز الشهادة الابتدائية ويقنع بعمل كتابى فى مدرسة النحاسين، وصبيتها من هؤلاء الذين عرفناهم أول القرن فى تلك الأحياء القديمة فى القاهرة يختلفون إلى المدارس كارهين لها، حراصا مع ذلك عليها ويعبثون فى الطريق بينها وبين الدار ويتفكهون حين يتاح لهم ذلك بالوقوف عند بائع البسبوسة وتأتلف عقولهم الناشئة من هذه الأحاديث المختلطة المتناقضة التى يسمعون بعضها من معلميهم فى المدرسة ويسمعون بعضها الآخر من أمهاتهم إذا راحوا إلى الدور.

ويؤلفون بين هذه المتناقضات مزاجا لا هو بالجديد الخالص ولا هو بالقديم الخالص وإنما هو شىء بين ذلك يعجب ويروق. وبناتها معجبات غافلات أيضا يتحرصن مع ذلك من اختلاس النظر بين حين وحين من ثقوب المشربيات إلى ما يجرى فى الشارع ومن يمر فيه من الشباب. والأسرة التى اتخذت محورا لهذه القصة تقيم فى ذلك الشارع القديم بين القصرين رئيسها تاجر من تجار الحى قد جاوز الشباب ولم يبلغ الشيخوخة بعد وهو أنيق مترف رائق المنظر والمظهر لا يكاد يخرج من داره حتى يكون صورة رائعة للترف والوقار أثناء النهار وصورة رائعة للعبث والمجون شطرا من الليل ولا يكاد يعود إلى داره حتى يكون صورة مروعة للجد والصرامة والحزم والتحكم ما أقام فيها.

وهو قد ملأ الدار وأهلها إعجابا به وحبا له وخوفا منه يبلغ الذعر والهلع. تحبه زوجه كل الحب وتفرق منه كل الفرق فهى خادم له تدعوه سيدها وتسهر منتظرة

عودته وتضىء له طريقه إلى حجرته متى عاد. هى خادم ولكنها خادم عاشقة وبناته وأبناؤه يسلكون طريق أمهم فى الخوف والفرق والإعجاب والحب.

وله ابن من غير زوجته هذه خامد خامل وتعس بائس قنع يعمل فى مدرسة النحاسين وقد طلقت أمه لسوء سيرتها وهو يعلم ذلك حق العلم ويشقى به أشد الشقاء.

وهو يسلك طريق أبيه لا فى الجد والنشاط ولا فى الوقار والاحتشام بل فى العبث والمجون وعلى هذه الأسرة تختلف أحداث الحياة هادئة مطردة أثناء الحرب ثم عنيفة مضطربة حين تضع الحرب أوزارها وتشب الثورة وينفى سعد زغلول.

وقد قلت إن القصة اجتماعية لأنها تصور هذه الأسرة والبيئة التى تضطرب فيها وما يختلف عليها من صغار الأحداث وكبارها ما يحزن منها وما يسر ولكن للقصة وجها آخر فهى تاريخية بأدق وأعمق وأوسع وأبرع معانى هذه الكلمة فلست أعرف قاصا صور الثورة المصرية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى كما صورها الأستاذ نجيب محفوظ.

صورها حية كأقوى ما تكون الحياة وصورها متغلغلة فى أعماق الشعب على اختلاف طبقاته مستأثرة بالقلوب والألباب مؤثرة فى حياة العابثين والجادين جميعا وفى حياة الشيوخ والشباب والصبية جميعا مغيرة وجه الحياة المصرية تغييرا تاما.

وصورها بما فيها من جود الشباب بنفوسهم ودمائهم وجود الشيوخ بأموالهم وجود الأمهات والأخوات بأمانيهن ودعائهن.

وصورها بما فيها من قسوة الإنجليز وبطشهم وغدرهم واستخفافهم بكل شىء وبكل إنسان وبكل مكانة وانتهاكهم للحرمات وخروجهم عن طور المتحضرين.

صور هذا كله أروع تصوير وأبرعه وأقساه لا بالألفاظ الرائعة المنمقة بل بالأحداث التى تفطر القلوب وتمزق النفوس.

ولست أقف فى هذا الحديث عند ما فى القصة من هذه الصور الأخاذة الخلابة التى لا تحصى لأن هذا يطيل الحديث أكثر مما تتحمل «الجمهورية» بل أكثر مما تتحمل صحفنا السيارة فى هذه الأيام.

لا أقف عند صورها الهادئة التى تعجب وتروق ولا عند صورها المثيرة التى تملأ النفوس حزنا وجزعا أحيانا وتملؤها إيمانا وأملا أحيانا أخرى وتملؤها ثقة بمصر دائما.

لأنى إن حاولت ذلك لن أفرغ منه وإنما أعيد ما قلته فى أول هذا الحديث من أن هذه القصة هى أروع ما قرأت من القصص المصرى منذ أخذ المصريون يكتبون القصص ومن أنها تثبت للموازنة مع ما شئت من القصص فى أى لغة من اللغات التى يقرأها الناس وأضيف إلى ذلك أن روعة القصة لا تأتى من هذه الخصال التى أشرت إليها آنفا فحسب، وإنما تأتى من لغتها أيضا فهى لم تكتب فى اللغة العامية المبتذلة ولم تكتب فى اللغة الفصحى القديمة التى يشق فهمها على أوساط الناس وإنما كتبت فى لغة وسطى يفهمها كل قارئ لها مهما يكن حظه من الثقافة ويفهمها الأميون إن قرئت عليهم.

وهى مع ذلك لغة فصيحة نقية لا عوج فيها ولا فساد.

وقد تجرى فيها الجملة العامية أحيانا حين لا يكون منها بد فيحسن موقعها وتبلغ منك موقع الرضا.

وأكبر الظن أن الأستاذ نجيب محفوظ قد وفى للجامعة التى تخرج فيها أصدق الوفاء وأقومه.

وفَّى لها بالعمل الصادق المنتج فأثبت أنها لم توجد عبثا وأنها لم تخرج العلماء فحسب وإنما أخرجت معهم الأدباء البارعين أيضاً وأخرجت معهم أبرع القصاص المصريين كذلك.

وكل شخصية فى هذه دليل واضح قاطع على أن الأستاذ نجيب محفوظ قد انتفع بما سمع فى كلية الآداب من دروس الفلسفة. لم يصبح فيلسوفا ولا مؤرخا للمذاهب الفلسفية وإنما أصبح فقيها بالنفس الإنسانية بارعا فى تعمقها وتحليلها، قادرا على أن يضع يد قارئه على أسرارها ودقائقها.

وحسبك بهذا كله نجحا للجامعة ونجحا لخريجها نجيب محفوظ.

عن كتاب «من أدبنا المعاصر»

القاهرة ١٩٥٨.